الرؤى الثالثة..

"النافورة"...

طياء عبد السلام

النافورة

هو: سأصدح لكِ اليوم بموشحاتِ قلبي..وألبس من شذى ليلكِ الوجد إلى السما.

هي:وأنا سأرتل مع هدهدة الأماني وكل لُغتي..هي لباسي أنتَ ولباسك أنا..

obeikan.com

النافورة

تتدفق المياه بقوة نحو الأعلى لتفتق بخريرها جزءًا من هدوء الفضاء المُحيط بالنافورة البيضاء، ثم تعود من جديد لتنساب إلى أسفل الحوض وكأنها لم تنطلق أصلا، فتعود لسكونها ومن ثم لدورة حركتها المتواصلة، جلست شذى تتأمل ذلك الاندفاع المتكرر للمياه، ورضيعتها شهد بيدها، وطفلها عهد أمام ناظريها، يلعب بعود صغير، يرسم به أشكالًا هندسية على التراب.

جلست وهي لا تزال تحت تأثير الغضب الذي أعقب الشجار الذي نشب بينها وبين زوجها حسن، فقد احتدمت النقاشات في بيت الزوجين الشابين خلال الآونة الأخيرة، لتتحول إلى شجارات شبه يومية، ينفجر على إثرها طفلها الصغير عهد بالبكاء، فتغضب شذى من ردة فعل حسن المستفزة لها ولمغادرته للبيت، ثم تحس بعدها بضغط كبير، وصعوبة في التنفس، فتهرع هي الأخرى إلى خارج شقتهما.

وتجلس في الحديقة المتوسطة لتلك البنايات، أمام النافورة البيضاء، والتي أصبحت الملاذ الروتيني لها، فهذه ليست المرة الأولى لاستياءها منه، فقد اختل التناغم والتواصل بين أفكارهما، فقدت على إثره كل إحساس بالتقارب بينها وبين توأم روحها، تأملت كثيرًا حركة مياه النافورة وهمست لنفسها:

هذه المياه تُشبه كثيرًا الصراخ الذي ينطلق من أفواهنا، والذي يشق هدوء فضاء هذه البنايات، ثم تمتمت: لحسن الحظ أن معظم هذه الشقق لا تزال غير مأهولة، وإلا لعلم الجميع بشجاراتنا المتكررة.

ثم أشاحت بنظرها عن النافورة، لتلتفت إلى رضيعتها النائمة في اطمئنان بين ذراعيها، وابتسامتها الوديعة على ثغرها، والتي تدل على فراغ بالها، على خلاف أمها التي تعكر مزاجها بسبب شجارها، والذي كان بسبب الطفلين.

تذكرت شذى كيف أخبرت زوجها صباحًا عن الحفل الخيري الذي تقيمه الشركة التي تعمل بها، والذي تود أن تحضره مع كل صديقاتها، وقد كانت ومنذ أسبوع، وهي تردد على مسامعه قيمة هذا الحدث، حتى يتسنى له التفرغ والبقاء مع الطفلين، وفي ذلك المساء لم يجبها، بل اكتفى بطريقته المعتادة بإيماءة سريعة برأسه، ليفاجئها بعد ذلك بأنه متورط مع أصدقائه في ميعاد لا يمكنه أبدًا تأجيله، صرخت حينها في وجهه:

"أنت شخص أناني، لا تهتم إلا بنفسك، ولا تحاول أبدًا أن تساعدني، أو تتحمل معي مسؤولية الأطفال".

فأجابها غاضبًا:

"أناني كيف أمكنك أن تنطقي بمثل تلك الكلمة؟ألا ترين

أنني أتحمل مسؤولية الأطفال معكِ؟ وأنني أحضرهما من الحضانة كلما لم تستطيعي لذلك سبيلًا؟ ثم من يساعدك في رسالتك؟ ومن يشجعك كي ترتقي في عملك إلى المستوى الذي تطمحين إليه؟

ثم قولي لي من كبل نفسه بكل تلك الأقساط حتى يوفر لك هذه الشقة الأنيقة وتلك السيارة؟ ثم تقولين عني أنني أناني".

أجابته:

"أنا لا أنكر أنك أحيانًا تضطر إلى مساعدتي، لكنك في أغلب الأوقات، تتهرب من ذلك بحجة أنك متعب من العمل وتريد أن ترتاح، أو لانشغالك بحضور مبارياتك وقنواتك الرياضية، أو بذهابك مع أصدقائك بحجة الترويح عن نفسك من ضغط الروتين.

ألا ترى أنني أعمل مثلك تمامًا؟ ألا ترى أنني أيضًا أحتاج إلى الراحة وكسر هذا الروتين ولو بفسحة بسيطة أحيانًا؟

لماذا لا تفكر بي قليلًا؟ وقد كنت ومنذ أسبوع وأنا أخبرك بأمر هذه الحفلة".

أجابها:

"أنا لم أنتبه لذلك، ثم إنها مجرد حفلة، وأطفالك أولى بالوقت الذي تضيعينه هناك".

obeikan.com

ضغطت على أعصابها وهي تستمع إلى رده ذاك ثم انفجرت:

"" ألم أقل لك أنك أناني؟ أنا أيضًا أحتاج للترويح عن نفسي، ألا تريد أن تفهم ذلك؟ من العمل إلى البيت، إلى العناية بالأطفال، إلى رسالة الدكتوراة، أحس بأنني حصان يعدو في سباق لا ينتهي أبدًا."

قال لها:

"لا أحد طلب منكِ كل هذا، أنتِ من أردتِ الركض بهذه الطريقة في الحياة، وأنا لا لومٌ عليَّ، فأنا أساعدكِ مرارًا وتكرارًا، ثم إن كنتِ لا تستطيعين التعامل مع كل هذا، فاتركي العمل".

اتجه نحو الباب، فأوقفته بإصرار وقالت:

" اسمح لي أيها الزوج العزيز ببعض من وقتك الثمين، يامن يملك حلًّا لكل شيء، ويملك إجابة لكل شيء، اسمح لي أن أسألك سؤالًا أنا مُصرة على طرحه الآن:

هل تظنني سعيدة؟

نظر إليها في تذمر ثم قال:

أنا ذاهب لقد تأخرت على موعدي.

انتظر دقيقة وأجبني.

لكنه لم يفعل، بل فتح الباب وصفقه خلفه دون أن يُجيبها على السؤال العالق بينهما، هل أنا سعيدة؟

بقيت هناك لفترة طويلة في الحديقة المُخصصة لتلك البنايات الجديدة، والتي تبتعد لبعض الكيلومترات عن وسط المدينة، بقيت على حالها تحاول أن تتحرر من غضبها، ومن حسرتها، فهي لم تتمكن من المشاركة في حفل الشركة، والذي كانت تتهيأ له منذ مدة، وكغيره من المناسبات، فقد فوتته هو الآخر، والسبب هو عدم وجود من يبقى مع الأطفال مساءً، فلا أمها تستطيع تحمل مسؤوليتهم بسبب مرضها، ولا أمه المُسنة تقوى على ذلك.

أما عن باقي أفراد العائلة فكلٌ له مشاغله، لتبقى الحضانة هي الملاذ الوحيد أمامها، ولكن للأسف ينتهي عملها في الساعة الخامسة، مع عدم المداومة في نهاية الأسبوع، وهكذا تبقى شذى رهينة، وحبيسة للبيت مُلغية لمشاريعها التي تذهب مع الريح، خصوصًا مع عدم التزام حسن معها، أحست بنسمة هواء باردة تتسلل إلى الجو، فقررت الصعود إلى شقتها حتى لا يأخذ الأطفال نزلة برد، وهم بثيابهم الرقيقة تلك، كانت لا تزال تفكر في وضعها وفي سؤالها العالق في ذهنها:

هل أنا سعيدة؟

يبدو أن المسؤوليات قد طحنت سعادتها كما تطحن الرحى الحبوب، فلم يعد لها من بقايا السعادة سوى غبار ذكريات ماضية، لحياة جامعية رومانسية، ولزواج مثالي في سنتيه الأوليتين، سافرا خلالها إلى بعض البلدان، وتعاهدا على أن يحققا حلمهما بزيارة المزيد أو على الأقل بلد واثنين من كل قارة من القارات الخمس.

فكرة جميلة تلك التي كانا يتقاسماها، تُمكنهما من التعرف على الثقافات المختلفة، وعلى جعل حياتهما أكثر غنى ومعرفة، بيد أن القدر أهدى لهم طفلهم الأول عهد والذي أوقف كل مشاريعهم تلك، ولتبدأ بعدها سلسلة جديدة من الالتزامات.

كان حسن في البداية يتكفل بنصف المسئولية، لكنه سرعان ما تباطأ تواجده وخفَّ اهتمامه، أو ربما كان لا يجرؤ على إظهار حقيقة يؤمن بها كغيره من الرجال، حقيقة أن الأم هي المسئولة الوحيدة عن رعاية الأطفال وتنظيم أمور البيت، لم يكن يعلن عن ذلك صراحةٍ، ولكنه كان كلما سنحت له فرصة ما، كان ينزلق وينفلت دون أن يلتفت وراءه، لتبقى شذى وحيدة، فتوبخه أحيانًا، ولكنه سرعان ما يعود إلى نفس العادة ونفس التصرف، ولتستمر بعدها دورة الحياة، الحياة المتصاعدة أحداثها تارة، المستقرة تارةً أخرى.

و مع مرور الوقت، تفاقم الوضع ليتجاوز بذلك أعتاب العتاب، وليدخل إلى كهف النقاشات الصاخبة المتكررة كأصوات الصدى، وإلى غضب حقيقي خصوصًا بعد مجيء طفلتهما شهد، لم تعد شذى قادرة على تحمل الضغط، ثم إنها لم تعد تفهم بأي لغة عليها إفهامه أنها متعبة وتريد منه فقط أن يساعدها، تتحسر شذى على أيام كانت لا تحتاج أن تنطق فيها، حتى تراه قد أدرك ما تريد:

"لعله تغير أو لعلي أنا التي تغيرت، من يدري؟

لكن كل ما أنا واثقة منه الآن هو أنني لست سعيدة".

عضَّت على شفتها السُفلى، ربما انتقامًا من هذا الاعتراف المُخيف، والذي كانت لا تريد مُواجهته، ثم استسلمت له وأعادت نطقه بصوت مسموع.

"نعم، أنا لست سعيدة".

"صحيح أنك توفر لي ولأطفالك كل ما نحتاج إليه من لباس جميل، وطعام، وحضانة، لكن أين هو وقتك؟ أين هي مشاركتك واهتمامك؟ أين هو عهدك الذي قطعته لي بأن أكون سعيدة؟ بأن نكون سعداء؟"

رنَّ جرس هاتفها مُحدثًا فجوة بينها وبين أفكارها، فأطلَّت

على شاشته لتجد أنها صديقتها سميرة، يبدو أن عدم حضورها جعل هذه الأخيرة تسأل عنها.

"مرحبًا سميرة".

"مرحبًا شذى، أين أنتِ؟ لماذا لستِ هنا؟ إنكِ حقًّا تفوتين حفلًا رائعًا."

"نعم، نعم، أعلم لكنني لم أستطع الحضور، أنتِ تعلمين، الأطفال لم أجد من يعتني بهم".

آه فهمت، لقد تركتكِ عالقة ككل مرة، أوه، السبب هو أنتِ، لأنكِ تتنازلين يا صديقتي دائمًا، ولا تتصرفي معه أبدًا بحزم".

"وماذا أفعل؟ أنا كنت قد أعلمته بأمر هذا الحفل منذ فترة طويلة، وأردته فقط أن يلتزم معي هذه المرة، لكن للأسف يبدو أن طبعه هذا أصبح عادة لديه".

كانت تتسرب من الهاتف بعض من أجواء الحفل، فعلقت فجأة صديقتها منبهرة:

"أوه عزيزتي، كم أنا آسفة لأنكِ لم تتمكني من المجيء، إنه فعلًا حفل رائع، ثم عادت إلى جديتها قائلة: "أنصحكِ أن تُظهري له غضبكِ واستياءكِ، بسبب فعلته هذه وبسبب عدم تقديره الدائم

لكِ، أنصحكِ بأن تحملي طفليك وتغضبي هذه المرة قليلًا في بيت أهلكِ، يعني شدَّة أذن خفيفة، أمَّا تسامُحكِ الدائم سيجعله حتمًا يزداد استخفافًا وعدم اكتراث بمشاعركِ".

" ماذا؟ أترك البيت؟!"

"نعم يجب أن يتعلم أن يُدرك أنكِ قوية وجادة في قراراتكِ، بهذا فقط سيحترم شخصيتكِ".

اعذريني الآن، سنتكلم لاحقا، أراكِ غدًا، إلى اللقاء".

لم تنتظر ردًّا من شذى، فأقفلت الخط بسرعة.

"يبدو أن الأجواء هناك رائعة فعلًا، فهي لم تُطل الحديث معي ككل مرة".

لكن ما قالته صديقتها لها، أربك تفكيرها قليلًا، فهي رغم خلافاتها العديدة مع زوجها لم تُفكر ولو لمرة واحدة بترك البيت، أيُعقل أن يكون الأمر كما قالت؟ أنني أهدأ بسرعة، وهل هذا هو ما يجعله يتمادى في عدم مُساعدته لي وعدم مُشاركته لي في حمل الأعباء؟

ربما هي على حق فأنا كل ما أقوم به هو الصراخ، وحين أفقد أعصابي أتوجه إلى النافورة البيضاء، أجلس هناك أتأملها، لعل صوت مياهها ذلك يُقلل من حدة توتري، وهذا ما يحدث فعلًا معي فأعود إلى البيت بعدها، وأبدأ من جديد صفحة جديدة.

ربَّما عليَّ فعلًا أن أحمل أطفالي وأن أتوجه إلى بيت أمي، ولكن هل يستحق هذا الاستياء الذي أشعر به أن يتضخم إلى مثل هذا القرار؟ربما آن الأوان أن أُغير من طريقة تعاملي هذه.

تنبَّهتُ إلى مفاتيح باب الشقة وهي تُعالج القفل حتى فتحته.

"يبدو أنه عاد مبكرًا فليس ذلك من عادته، بعد مثل هكذا شجار".

ظهر حسن أمامها بوجه كئيب، ثم ألقى عليها التحية، نظرت إليه بغضب ثم أدارت وجهها إلى الناحية الأخرى، فتقدم نحوها وقال محاولًا تخفيف التوتر الذي بينهما: ما رأيكِ أن نذهب إلى مطعم ما لتناول العشاء؟

لم تجبه فاستطرد: أو البيتزا، فعهد يحبها كثيرًا.

وأضاف بصوت خفيض: وكذلك أنتِ.

نظرت إليه ببعض الشرر المُتبقي من لهيب غضبها وقالت:

وما كل هذا الاهتمام؟ أصدقائك تركوك وأخلفوا موعدهم معك فجئت لتتعطف علينا نحن ببعض من وقتك الثمين؟

لا داعي لهذا الاستهزاء، أنا لم أذهب للقائهم.

تفاجأت قليلًا ثم قالت: "لم تذهب؟! إذن أين كنت؟!"

ولماذا حرمتني إذن المشاركة مع زملائي في العمل من الذهاب للحفل؟ ألم يجدر بك الإلتزام معي قليلًا بدلًا من هذه الشجارات المتواصلة بيننا؟ أنت فعلًا غريب جدًّا".

قال موضحًا: "لقد خرجت من هنا وجلست أيضًا في الحديقة تحت ظل بعض الأشجار، لقد كنت مستاء أيضًا، جلست هناك، وإذا بكِ تنزلين وتجلسين أمام نافورتكِ البيضاء، وأنتِ في غاية الحزن، وقد شدَّني منظركِ كثيرًا، حتى أنني أحسست بضِعفِ ما كنت أحس به من استياء".

قاطعته: جلست هناك؟

إذن كان الأجدر بك ساعتها أن تأتي وتأخذ الأطفال، وأن تسمح لي باللحاق بزملائي، ربما ذلك كان سيخفف من غضبي تجاهك".

أشار بيده لها محاولًا الاستمرار في حديثه:

"أرجوكِ يا شذى أنا أحاول أن أشرح لكِ، يجب أن تعلمي أن ما يُزعجكِ يُزعجني، وأنني لست أنانيًّا، أو غير مهتم كما تظنين".

ثم أضاف: بصراحة أنا أقل منكِ كفاءة في تحمُّل كل تلك الأعباء، أنا مثلًا لا يُمكنني أن أعمل مثلك، لأعود فأجد أعباء أخرى تنتظرني هنا في البيت، ثم أن أدرس في نفس الوقت، وأن

أهتم أيضًا بالأطفال، فأنا حقًّا لا أستطيع ذلك".

"وهل تظن أنني أستطيع؟

أنت ترى كم أُعاني حتى أحقق الراحة لك ولأطفالك، وكل ما أسألك إياه هو مساعدتي أحيانًا، بأن تهتم بالأولاد، لكنك تُفضل راحتك الشخصية، تُفضلها على أي شيء آخر، وهذا ما لم يعد باستطاعتي تحمله."

حاول الدفاع عن نفسه:

"صدقيني أنا أحاول جاهدًا أن أكون في مستواكِ، لكنني لا أستطيع".

قاطعته مجددًا:

"لقد جلبت لك منذ فترة كتابًا حول الخلافات في العلاقات الزوجية وكيفية علاجها، لكنك لم تحاول حتى إلقاء نظرة عليه، صدقني أنت لا تحاول أبدًا".

تنهد قليلًا وقال:

اسمعي يا شذى طبيعي أن نختلف، فطبيعة تكوينك غير طبيعتي.

"أتقصد أنك من المريخ وأنا من الزهرة" قالتها باستخفاف.

"لا.. أقصد أنني لا أملك طاقتكِ، ولا قدرتكِ، فأنا لا أجيد

التعامل مع الأطفال كما تفعلين، أستطيع أن أهتم بهم لساعة أو ساعتين ليس أكثر، فهم يبكون باستمرار، يلتقطون أشياء غريبة ويلتهمونها، لقد أخرجت من فم شهد أحد الأزرار الكبيرة، والتي لا أعلم حتى الآن كيف وصلت إلى فمها، وقد ذعرت لذلك.. أنا فعلًا آسف لأنني لستُ بمستواكِ.

أحسَّت شذى ببعض الفخر لإطرائه عليها، فهو يعترف بكفاءتها في إدارة أسرتهم الصغيرة، تقلص حجم الغضب عندها كثيرًا، بل هدأ تدفق اضطراباته السلبية إلى حوض أفكارها، فرأت أنه من الأفضل لها أن تقبل اعتذاره ودعوته لتناول البيتزا كتعويض لها عن أمسيتها الضائعة.

قالت له دون أن تسمح لمشاعرها بالظهور ...علنًا:

"سأُغير ثياب الأطفال وسآتي في الحال".

ابتسم أخيرًا لها وقال:

" هذه هي حبيبتي شذى المتسامحة دائمًا، ثم أردف:

تأكدي أنني سأقوم بمجهود مُضاعف في المستقبل حتى لا أُغضبكِ".

فأجابته:

"حسنًا حسنًا، وأنا سأكون أكثر تفهمًا".

بعد نصف ساعة، تجهزت فيها وألبست الطفلين معطفين سميكين، خرجا معًا يضحكان، وكأن شيئًا لم يحدث، فقد غاض كل ذلك التوتر عن قلبيهما، فمرا أمام النافورة البيضاء، نظرت إليها شذى بابتسامة وهي تفكر، صحيح أن زوجها قد وعدها بأن لا يُغضبها مرة أخرى، وأن لا يدفع بها إلى حضن النافورة مجددًا، ولكنها تعلم جيدًا أن هذه الشجارات لن تتوقف، ربما ستخف قليلًا، ربما ستتباعد بينها الأيام، لكنها تبقى كرشة الملح للطعام، والتي لا غنى عنها، وكظل الغمام الذي لا يدوم، وأنه على الرغم من حبها الكبير لحسن وحبه الأبدي لها، إلا أنها تعلم يقينًا بأنها ستزور نافورتها بين الحين والآخر.

تمت بحمد الله

obeikan.com

لمياء عبدالسلام

لمياء عبد السلام من مواليد طنجة.. خريجة كلية الآداب والعلوم الإنسانية.. قسم دراسات إسلامية..

كاتبة هاوية للحروف ومؤلفة لبعض القصص القصيرة والحكايات..

كاتبة لرواية "طوق حمامة بربشتر المنكسر".. رواية إلكترونية.. اشتركت في مجموعة قصصية مشتركة للكتاب العرب والمصريين تابعة لمبادرة "نساء مُبدعات" تحت رعاية "دار الشهد للنشر والتوزيع "وهي"وعد الروح".

مُهتمة بالتاريخ الأندلسي.. وباللغة الإسبانية وبالثقافات المختلفة..أقرأ لكُتاب مُختلفين..وبمجالات مختلفة..ومع ذلك أحب كتابات الرائعة رضوى عاشور..وفيكتور هوغو..دان براون...و كل الكتابات التي أستفيد منها...والتي تضيف إليَّ معاني جديدة .. وأطمح أن أكتب يومًا رواية بمستوى حجم هؤلاء..

مثلي الأعلى أولًا وأخيرًا هو الرسول عليه الصلاة والسلام .. ثم كانت أمي رحمها الله قدوتي.

وباحثة عن كل معاني الجمال والجلال.. وكل ما يجعل مني إنسانة أفضل...

لمتابعتي على موقع التواصل الإجتماعي (فيس بوك)

lamiae akhamlich